

الأديب و المَفَكِّرُ الرَّاجِلُ رَمَضانُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدُ

عمالقة في التاريخ



أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون

عربي صريح النسب . يؤكد أن جده الأول نزح من حضرموت ... ويزعم أن جده خلدون انتقل إلى اشبيلية في الأندلس وقد رافق الجيش العربي الفاتح بقيادة طارق بن زياد أو بعده بقيادة موسى بن نصير.

العلماء النسابون وغير النسابين يختلفون في صحة نسبه ويقول بعضهم : أن ابن خلدون نفسه لم يكن واثقاً من صحة هذا النسب بالذات أعرب عن ذلك بصورة غير مباشرة .

على أن النسب إن صح أو لم يصح فلا قيمة له في تقييم شخصية ابن خلدون الذي كان يردد بلسان الحال بيت المتنبي الذي يقول فيه :

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي

وبنفسى فخرت لا بمجدودي

وبهم فخر كل من نطق الضاد

وعوذ الجاني وغوث الطريد

لقد ولد ابن خلدون في بيت حسيب نسيب . استطاع آباء وأجداد له أن يبلغوا أعلى المناصب حتى أن أحد أجداده استطاع أن ينتزع الحكم لنفسه في الأندلس بفضل ما كان يتمتع به من الذكاء والدهاء والقدرة على اقتناص الفرص.

كان في العشرين من العمر حين وفق إلي أن يكون حامل أختام السلطان الحفصي في تونس ... لكنه لم يلبث حتى مل الوظيفة وخطط لهروب من العاصمة التونسية ليلتحق بسلطان فاس . وقد استطاع أن ينفذ خطته بنجاح كما استطاع أن يتقرب من السلطان أبي عنان في المغرب . وقد قضت ظروف حياته عليه أن ينتقل بعد ذلك من الشمال الافريقي إلى الأندلس فوفق إلى اكتساب ثقة السلطان في غرناطة الذي لم يلبث حتى انتدبه للسفارة لبلاده لدى ملك فشتالة بيدرو القاسمي الذي لم يلبث حتى أعجب به . وبعد أن عرفه بعض رجال حاشيته عن تاريخ أسرته المجيد عرض عليه أن يستقر عنده في بلاطه مقابل أن يعيد إليه ثروة أجداده السابقين. لكن ابن خلدون لم يوافق على عرضه.

أيامه في أفريقيا الشمالية كانت حافلة بالأخطار والمؤامرات ... كان وزيراً أكثر من مرة ، وكان حاجباً للسلطان أكثر من مرة . لكنه بعد سنوات طويلة تقلبت فيها الأيام واختلقت عليه فيها الخطوب قرر أن يعتزل السياسة وأن ينصرف إلى تسجيل تأملاته في ضوء المعارف التي استوعبها والحياة الحافلة بالأحداث المليئة بالصخب والتي اكتسب فيها العديد من الخبرات فأكب في قلعة منعزلة من قلاع تونس على كتابه مؤلفه التاريخي الشهير " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " ولا سيما مقدمة هذا الكتاب التاريخي الضخم . وهي التي ميزته من كل المؤرخين الذين سبقوه أو الذين جاؤوا بعده في أقطار العالم العربي الإسلامي.

ومضت أربع سنوات على عزلته في قلعة ابن سلامة والتي انقطع خلالها للدرس والمطالعة حتى اذا أنهى كتابه المقدمة التي كانت تعتبر في ذلك الوقت فتحاً في فلسفة التاريخ وخطوة مبدعة في علم الاجتماع أيقن بأن تقلبه في سلطنات الشمال الأفريقي وفي بلاد الأندلس لا يمكن أن يعود عليه بالاستقرار . فقرر العودة إلى تونس مسقط رأسه .

وعندما سئل عن السبب في اختياره العودة إلى السلطان الحفصي أجاب : أنه لم يعد في وسعي العودة إلى غير بلده تونس لأن أفريقية الوسطى وأسبانيا ومراكش قد أغلقت دونه باب العودة إليها بسبب تورطه في سلسلة من المؤامرات على حكام تلك البلاد وسلطينها .

هكذا عاد إلى تونس فاحسن السلطان الحفصي فيها استقباله وتفضل كما يقول ابن خلدون باستشارته في شؤونه. وبالرغم من اعتزاله للسياسة برغبة منه أو لاستغناء السلطان الحفصي عن خدماته لم يلبث حتى واجه عدواة الخصوم وحسد الحساد لا باعتباره رجل سياسة بل بسبب نشاطه العلمي وتفوقه على أقرانه . وكان في مقدمة أولئك الحساد رجل قوي هو محمد بن عرفة مفتي تونس ورفيقه في المدرسة من قبل . فقد حقد هذا الأخير عليه لشهرته ولأن تلامذته الذين كانوا يترددون على مجلسه العلمي قد انفضوا من حوله ولحقوا بمجلس ابن خلدون .

والواقع أن محمد بن عرفة قد أشهر عليه دعوة مزدوجة في البلاط السلطاني وفي مدينة تونس ، نصوره في صورة الرجل الخطر وأشاع عنه أشنع التهم. وكان ابن عرفة يهدف إلى إقناع السلطان بنفيه الذي رفض تحقيق بغيته فاكتفى بإبعاده عن المدينة.

شعر ابن خلدون بصعوبة العيش في تونس بعد تعرضه لوشايات الوشاة وحسد الحساد ، وتسامع في الوقت نفسه بما يكن أن يلقاه رجل مثله في مصر ، البلد العربي الإسلامي الكبير ، فقرر النزوح إليها، فأعلن عن رغبته في الحج إلى البيت الحرام وهو ينوي الإقامة في مصر. وهكذا غادر تونس ثم لم يرجع إليها بعد ذلك أبدا.

وبلغ ابن خلدون الاسكندرية بعد أربعين يوماً قضاها في سفينة شرعية فوق مياه البحر . وهناك قدم إلى السلطان الذي أعجب بعلمه وحسن درايته فأجرى عليه رزقاً كالذي كان يجري على العلماء في زمنه.

وطبيعي أن ابن خلدون لم يكن يؤمل في أن يلعب أي دور سياسي في بلاط مصر ، إذ لم يكن في وسعه أن يمارس مثل هذا النشاط في القاهرة التي وجد فيها عالماً غير العالم الأفريقي . فالقاهرة التي كانت كما سماها " عاصمة الاسلام " ليست في بلد نصف متحضر كما هو شأن المدن في أفريقيا الشمالية بل كانت ذات حكومة وبلاط يقومون على دعائم متينة ثابتة ولهما قواعد وقوانين يسيران طبقاً لها بطريقة منتظمة موحدة .

على أن ابن خلدون لم يجد في القاهرة ما كان يطمح إليه ويحلم بالفوز به من الأجداد . فقد كان له من شخصيته القوية ومعارفه الواسعة ما أثار حسد الحساد عليه بعد أن عين قاضياً للمالكية عام ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) .

والجدير بالذكر أن ابن خلدون كان واحداً من أربعة قضاة كل منهم كان يمثل مذهباً من المذاهب السنية الأربعة التي كان لها أتباع في مصر والشام. وقد نغم ابن خلدون من قاضي الشافعية سلطته وأهميته فأخذ في منافسته ، ولكنه كما يقول المؤرخون أخفق في محاولته لأن صرامته في إصدار الأحكام ، ورفضه لتوسلات الأعيان وكبار رجال البلاط الذين كان الناس يستشفعون بهم عنده قد انتهيا به إلى ضياع وظيفته . لكنه احتفظ بمكانته في مصر بسبب علمه .

والواقع أن حياته في مصر قد حفلت بنشاط علمي واسع . فقد أقبل على مؤلفاته ينقحها وعلى مجالس التدريس دون انقطاع . ومع ذلك فإن مرض السياسه لم يلبث حتى عاه مرة أخرى ففقد صلات مع أمراء وسلاطين أفريقية واستطاع أن يوطد أمتن العلاقات بينهم وبين سلطان مصر ينصح هذا ويشير على أولئك ويبين لهم أهمية مصادقتهم لحكام مصر ويطلب إليهم تنفيذاً لهذه الخطة أن يرسلوا إلى مصر الهدايا الكثيرة لا سيما من الجياد على أساس أن مصر هي طريق طبيعي للمسافرين إلى مكة المكرمة .

واستعاد ابن خلدون منصب القضاء الذي فقدته من قبل عام ٨٠١ هـ فبدأت المنافسات تبرز قرنها من جديد فلم يلبث أن عزل مرة أخرى.

في تلك الفترة ظهر الملك المغولي تيمور لنك فاحتل مدينة حلب في شمال بلاد الشام عام ٨٠٣ هـ فنهض سلطان مصر لرد الغازي المغولي وصحبه قضاة مصر وأعيانها وكان ابن خلدون بين من اصطحبهم السلطان معه .

وطبيعي أن السلطان لم يكن يجد في بقاء ابن خلدون في مصر أي خطر على سلطانه لكن العادة جرت بأن يرافقه في كل حرب من حروبه جلة العلماء والصوفية والقضاة تبركا بهم وإيماناً منه بأن وجودهم إلى جانبه يستجلب له توفيق الله له في حربه .

وفي أثناء وجود السلطان المصري في مدينة دمشق بانتظار قدوم الجيش المغولي حدثت في مصر أحداث أوجبت على السلطان مغادرة هذه المدينة وعودته إلى عاصمة بلاده وبقي ابن خلدون مع جماعة العلماء في دمشق.

وهنا عاودت ابن خلدون نزعتة في انتهاز الفرص فأقنع زملاءه بتسهيل خروجه من المدينة المحاصرة لمقابلة تيمور لنك . حتى إذا التقاه في خيمته جرى بينه وبينه حوار أثار اهتمام الملك المغولي بعلمه الواسع في التاريخ والجغرافيا. وانهقدت صلة قوية بين الرجلين وأقام ابن خلدون ضيفاً على الملك خمسة وثلاثين يوماً .

يقول ابن خلدون : لقد قدمت هدية إلى الفاتح المغولي بعد أن دخل دمشق ونهبها جنوده وأحرقوها وذبحوا أعداداً كبيرة من سكانها . أما الهدية فهي مصحف بديع الخط ثمين التجليد ، ونسخة من قصيدة البردة الشهيرة التي نظمت مدحاً للنبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، وسجادة وعلبتان من الحلوى المصرية . وعندما سألني السلطان المغولي عن رغباتي حدثته عن غرقتي ووحدي في دمشق وأني وزملائي من علماء مصر ومتصوفها وقضاها في حاجة إلى حمايته فمنحنا أياها .

في تلك الأيام كان ابن خلدون حريصاً على الفوز برضا الملك المغولي فاستعان بكل ما يملكه من الدهاء وحسن التصرف ليبقى إلى جانبه .

وعندما سأله تيمور لنك عما إذا كان راغباً في العودة إلى مصر قال له : " أن أكبر أمنية لي هي أن أتبع مولاي " لكن الملك المغولي لم يكن من السداجة والبساطة بحيث يستجيب لرغبة ابن خلدون . فقد أدرك من خلال محاوراته لهذا القاضي الأريب بأنه ليس الرجل الذي يصلح لمرافقته . ولذلك لم يحقق له طلبه وأن لم ينقص ذلك من اعجاب به . فأمر له ولكل من زملائه المصريين باجازه للعودة إلى بلادهم . وكان من حسن الأثر الذي تركه ابن خلدون في نفس الملك المغولي أن هذا أرسل إليه مبلغاً من المال على يد السفراء المصريين الذين ندبهم سلطان مصر لعقد الصلح معه. ويقول ابن خلدون : إن هذا المال الذي أهده الملك المغولي له كان مكافأة له على البغلة الفارحة التي كان قد أهدها أياها قبل مغادرته لبلاد الشام. وبدلاً

من أن يعترف ابن خلدون بفشله في اقناع الملك صاحب السطوة العظيمة باصطحابه معه وابقائه في جملة بطانته قال لمن يجب أن يسمعه : الحمد لله الذي خلصني من قبضة هذا الفاتح وعوضني عن ثمن بغلتي التي اهديتها إليه.

وعاد ابن خلدون إلى مصر ، وعادت مع عودته المنافسات بينه وبين خصومه من الذين كانوا ينقصون عليه علمه وقوة شخصيته . وطبعي أنه لم يترك وسيلة لاقناع القريين والبعيدين عنه بأنه هو الذي حاول الابتعاد عن الملك تيمور لنك . حتى أنه كتب فيما كتبه رسالة ضافية إلى سلطان مراكش سرد فيها قصته مع تيمور وقال فيها : " أن الذين يعتقدون أن تيمور لنك رجال عالم مخطئون . فهو رجل وافر الذكاء لكنه مولع بالمجادلة فيما يعلم ولا يعلم . " .

وفي عام ٨٠٣ هـ ، أي بعد عودته إلى مصر ، عادت المناقشات العنيفة العلنية بينه وبين المنافسين له من فقهاء المالكية وكانت أشد المناقشات بينه وبين فقيه مصري يدعى البساطي . نتج عنها أن كلا منهما أخذ يشغل منصب القضاء بصفة أشهر ثم يتركه للآخر ، فلا يلبث هذا حتى يغادره . هكذا تكرر تعيين ابن خلدون في السنوات القليلة الأخيرة من حياته في منصب القضاء ست مرات . وبعد أن استعاد ابن خلدون منصبه لآخر مرة بقليل توفي في ٢٥ رمضان عام ٨٠٨ هـ (١٥ آذار - مارس - عام ١٤٠٦ م) .

هذا وقد تعاقب النقاد والمؤرخون بعد وفاة هذا الرجل الذي حفلت حياته بنشاط غير عادي وترك وراءه ثروة علمية كبيرة ، منهم من كان يجد فيه شخصية المتشائم من مثل فون كرامر الألماني الذي حاول أن يقارن بينه وبين أبي العلاء المعري ولكنه فرق بينهما بأن زعم بأن تشاؤم ابن خلدون هو تشاؤم عالم بينما تشاؤم أبي العلاء المعري هو تشاؤم شاعر . وأن الذي أوحى بهذا التشاؤم إليهما معاً هو الانحطاط العام الذي هوت إليه الدولة العربية .

لكن الدكتور طه حسين في كتابه " فلسفة ابن خلدون الاجتماعية " يرى " أن خلق ابن خلدون لم يتأثر بانحطاط الدولة العربية ولا بما اعتري حياته من اضطراب ، بل كان منذ بدء حياته حتى نهايتها أقرب إلى الابتهاج والثقة بنفسه " ويضيف الدكتور طه قائلاً : " ألم نره قبل وفاته بخمسة أعوام في سن السادسة والستين يحاول نيل الخطوة لدى تيمور؟ فلما لم ينجح عاد إلى القاهرة هازئاً ساخراً من تيمور ومن التتار جميعاً؟ " .

والواقع أن ابن خلدون كان يحمل في نفسه شخصيتين مختلفتين بل متعارضتين : كان عالماً ملماً بعلوم عصره، مستوعباً لثقافته مدركاً أهمية المعرفة في تحقيق أطماحه . فهو يقبل على الدراسة والتأمل أقبال من لا يرى الخير إلا في احتواء المعارف . فيكتب ويجمع الأخبار ويتعمق في درس المادة التي يكتب فيها كما لو أن الدنيا كلها في نظره هي دنيا العالم الذي يثير الناس من حوله ويدهشهم ويغزو قلوبهم . وكان من ناحية أخرى الرجل الذكي الأريب والشجاع الذي لا يبالي أين يقع وكيف يقع سعياً إلى السلطان . لا يتورع عن استخدام أي وسيلة تحقق له بغيته هو مكيا فيلي ، الغاية عنده تبرر الوسيلة .. ولذلك كان لا يتردد في الانقلاب على ولي نعمته ومعاداة من أحسن إليه . ولا عجب في ذلك فإن أخلاقه هذه لم تكن بدعاً ولا استثناء في عصره الذي أصبحت فيه دنيا الناس طعمة لكل طامع ونبهة لكل ناهب .

وقد ترتب على سلوكه هذا أن ينتقل بولائه من سلطان إلى سلطان ومن بلد إلى بلد . كما ترتب على هذا السلوك بروز عاطفة الأثرة عنده فهو لا يفكر إلا في نفسه ولا يرى باعثاً على النشاط والتحريك إلا الرغبة في الظهور وركوب الموجه التي يقع عليها . حتى عاطفته الأسرية كانت ضعيفة جداً والدليل على ذلك أن غرق أسرته في البحر لم يثر فيه قبل كل شيء غير الأسف على المال الذي ضاع بضياح الأسرة ثم أتبع أسفه على المال حزنه كما قال على فقدان سعادته ثم على ضياح البنين .

ان ابن خلدون العالم المغامر الباحث عن السلطان بأي ثمن وأي وسيلة كان نموذجاً لفردية مغرقة شديدة تمحو كل أثر لأي عاطفة دينية أو ولاء وطني .

كل هذا لا يمنعنا من أن نقرر بأن ابن خلدون كان ولا يزال عملاقاً من عمالقة التاريخ العربي الإسلامي . كتب في موضوعات كثيرة وألم بعلوم عديدة . عالج المنطق واختصر فلسفة ابن رشد وألف كتباً في الفقه والرياضة وفي الأدب . لكن الأحداث لم تحفظ له غير الكتاب التاريخي الضخم الذي عرف له وهو كتاب " العبر في المبتدأ والخبر " ولا سيما مقدمة هذا الكتاب التي اعتبرت فتحاً في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

أما كتبه الأخرى فقد ضاعت ولم يبق منها غير عناوينها التي أثبتتها أحد خصومه السياسيين لسان الدين ابن الخطيب في كتابه " الاحاطة في أخبار غرناطة " .

لقد ذهب ابن خلدون مع ما ذهب من الدول والرجال والعلماء . فلم يعد يذكر الناس له إلا مقدمته التي بوأته قمة من قمم العمالقة لا في التاريخ العربي الاسلامي وحسب بل في تاريخ البشرية كلها .